﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ [الحجر: 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا رأيَ لمن لا يطاع، والعَمَهُ في سكرة الهوى، ليس لـه دواء

لمّا ذكرَ ما ذكر من أمورِ قومِ لوطٍ عليه السلام وعظيمِ فجورهم، وهم قد فُرِغَ من أمرِهم وقُضيَ باستئصالِهم، كان كلُّ مَن يعلمُ ذلك قاضيًا بأنَّهم لا عقولَ لهم، فأتبع سبحانه ذلك ما يدلُّ عليه فجاءت هذه الآية[1].

وأيضًا لمّا كان الظّاهر من أفعالِ قومِ لوطٍ أنَّهم لا يُقلعون عن أفعالِهم القبيحة جاءت جملة ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ مُعْتَرِضَةً بَيْنَ أجْزاءِ القِصَّةِ؛ لِلْعِبْرَةِ في عَدَمِ جَدْوَى المَوْعِظَةِ فيمَنْ يَكونُ في سَكْرَةِ هَواهُ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعَمۡرُكَ﴾: أصلُ (عمر): يَدُلُّ على بَقاءٍ وامتِدادِ زَمانٍ، فالعُمرُ وهو الحَياةُ، وهو العَمرُ أيضًا، فإذا أقسموا فقالوا: لَعَمرُك فتَحوا لا غيْرُ، والجَمعُ أعْمار؛ وسُمّي الرَّجُلُ عَمرًا تَفاؤُلًا أن يَبْقَى[3]، والعَرَبُ تَقولُ في القسَم: لَعَمري ولَعَمرُك، يَرْفَعونَهُ بالِابْتِداءِ ويُضْمِرونَ الخَبَرَ كأنَّه قالَ: لَعَمرُك قَسَمي أو يَميني أو ما أحْلِفُ به، وقيلَ: العَمرُ هاهُنا الدّينُ؛ وأيًّا كانَ فإنَّه لا يُسْتَعْمَلُ في القسَم إلّا مَفتوحًا، يُقالُ: لَعَمرُكَ، يَحْلِفُ بِعَمرِه، أي: حَياتِه[4]، وما أقسَم اللهُ تَعالَى بحياة أحدٍ إلّا بحياة النَّبي ﷺ[5]، والمقصود بـ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/7.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/67.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عمر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عمر).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عمر).

الآية: قَسَمٌ بحياةِ المُخاطَبِ به، والمُخاطَبُ بِها مُحمَّدٌ ﷺ مِنْ قِبَلِ اللّه تعالى[1].

2) ﴿سَكۡرَتِهِمۡ﴾: أصلُ (سكر) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى حَيْرَةٍ. مِنْ ذلكَ: السُّكْرُ مِنَ الشَّرابِ. يُقالُ رَجُلٌ سِكِّيرٌ، أيْ: كَثيرُ السُّكْرِ[2]، والسَّكْرَةُ: ذَهابُ العَقْلِ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ السَّكْرِ - بِفَتْحِ السّينِ - وهو السَّدُّ والغَلْقُ[3]، والسَّكَرُ - بِفَتْحَتَيْنِ -: الشَّرابُ المُسْكِرُ، والتَّسْكيرُ: التَّحْييرُ، والسِّكْرُ: اسْمُ السِّدادِ الَّذي يُجْعَلُ سَدًّا لِلشِّقِّ ونَحْوِهِ، والماءُ إذا سُكِرَ تَحَيَّرَ[4]، والمرادُ مِنَ السَّكْرَةِ في الآيةِ: ذهابُ العَقْلِ.

3) ﴿يَعۡمَهُونَ﴾: أصلُ (عمه): أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على حَيْرَةٍ وقِلَّةِ اهتداءٍ، قالَ الخَليلُ: عَمِهَ الرَّجُلُ يَعْمَهُ عَمَهًا، وذَلِكَ إذا تَرَدَّدَ لا يَدْري أيْنَ يَتَوَجَّهُ، والجَمْعُ عَمِهون وعُمَّهٌ، والعَمَهُ في البَصيرَةِ كالعَمَى في البصَرِ[5]، وقيلَ: العَمَهُ التَّرَدُّدُ في الضَّلالَةِ، والتَّحَيُّرُ في مُنازعةٍ أو طَريقٍ؛ قالَ ثَعْلَبٌ: هو أن لا ألّا يَعْرِف الحُجَّةَ[6]، والعَمَهُ في الرأْيِ، والعَمَى في البصَرِ، ويَكونُ العَمى عَمى القَلْبِ، يُقالُ: رَجُلٌ عَمٍ إذا كانَ لا يُبْصِر بِقَلْبِهِ، وأرض عَمهاءُ: لا أعلامَ بها، وذَهَبَتْ إبلُهُ العُمَّهَى إذا لم يدرِ أينَ ذهبتْ، والعُمَّيْهَى مثله[7]، والمقصود بالعَمَهِ في الآية: انطِماسُ البَصيرَةِ وتَحَيُّرُ الرَّأْيِ.

سكرة الفواحش، تجرّ إلى كلّ فاحش، ولا ينفع معها نصح ولا تقريع

المَعْنى الإجْماليُّ:

أجمع أهل التَّفسير في قوله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ أنَّه قسَمٌ مِنَ اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/68.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/68.
(4) ابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سكر).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (عمه).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عمه).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عمه).

ﷻ بمدَّة حياة محمَّد ﷺ تشريفًا له، فقال سبحانه: أُقسِمُ بحَياتِك يا محمَّدُ ﷺ إنَّ قومَكَ لَفي ضَلالتِهم وجَهالتهم وغَفلتِهم يترددون ولا يهتدونَ.

ويُحتمل أن يرجع ذلكَ إلى قوم لوط، أنَّهم كانوا في سكرتهم يعمهون، بسببِ سَكرةِ الهَوى والعِشقِ، وأنَّ الملائكة قالت له: ﴿لَعَمْرُكَ﴾[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الجملةِ الاعتراضيَّة، في سياق الآية:

استحكام داء الفاحشة العضال، سبيل للزّيغ والفساد والضّلالِ

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، إن كان الكلامُ خطابًا منَ اللّه تعالى لسيدنا رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ - وهو الذي عليه جمهور المفسّرين، ونُقل إجماعهم عليه[2] - وكان الضّمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى المكذِّبين من قريش بدلالة المخاطبة كانت الجملةُ اعتراضيَّةً، وأفادت تنبيه المكذِّبين من قريشٍ إلى أنَّ حالَهم كحال قوم لوطٍ في غوايتهم وعدم تمييزهم الصّواب منَ الخطأ ممّا هو بيّن عندَ عقلِ أيِّ إنسانٍ، وإلى أنَّهم قد كذّبوا مثل تكذيب قوم لوطٍ لكنَّهم لم يعاقبوا بعدُ، فليترقّبوا العذاب إن استمرّوا في ضلالِهم وغيِّهم، ومثله في كون الجملة اعتراضية إن عاد الضّمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ على قوم لوطٍ، ليُفيدَ الاعتراضُ النَّعيَ عليهم، وتماديَهم في ارتكاب تلك الفاحشة؛ لأنَّ في عرضِ نبيِّ اللّه لوطٍ عليه السلام بناتِه على القوم، دليلًا على بلوغِ الغايةِ في الأمر، وأنَّه بلغ السَّيلُ الزُّبى، وجاوز الحزامُ الطُّبيَين، كأنَّه قيل: يا محمَّد ﷺ، بحياتك أقسم، إنَّهم لفي سكرتهم يعمهون، وإن كان الكلامُ خطابًا من الملائكة للوطٍ عليه السلام

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433، والزّحيلي، التفسير المنير: 14/57.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/632، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/39، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/490.

فالجملة ليست اعتراضًا، ويجب أن يُقدَّرَ: قالت الملائكة: لَعَمرُكَ؛ لتفيدَ بيان سبب الحكم عليهم بالاستئصالِ ووقوع أنواعِ العذاب، فلأنَّهم في سكرتِهم يعمهون فلا ينتفعون بتذكير ولا نصح أخذتهم الرّجفة وجعل اللّه عاليَ المدينة سافلَها كما أفادت الجملةُ تأكيد ما كان يستبعده[1].

بلاغةُ صيغةِ جملةِ القسمِ ﴿لَعَمْرُكَ﴾:

تكريم رسول الله ﷺ، وإعلام الأمّة بنعمة وجوده وبعثته

في القسم بعمر رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ أعظم تفضيل له وتكريم، وهذه الآية آية عظيمة في تفضيل رسول اللّه، فلم يقسم اللّه تعالى بعمرٍ غير عمرِ سيدنا محمَّدٍ ﷺ، ولا أقسم بغيره منَ النّاس، وفي القسم بحياتِه ﷺ إيذانٌ بظهورِ رفعته على سائر الخلقِ، وتخصيص له في شرفه ومحبَّته وتفضيلٌ له على سائر البريَّة، فإنَّ اللّه تعالى ما اقسم بخلقٍ من خلقه على جهة المخاطبة سواه ﷺ، وأجلُّ ما أقسم به من خلقه نبيُّنا ﷺ، فعَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، قالَ "ما خَلَقَ اللّه، ﷻ، ولا ذَرَأَ ولا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ، ﷺ، وما سَمِعْتُ اللّه أَقْسَمَ بِحَياةِ أَحَدٍ إلا بِحَياتِهِ"[2] ووجه القسم بعمر رسول اللّه ﷺ هو أنَّ العمر هو أوقاتٌ لحياةٍ مخصوصة؛ ليفيد القسم بالعمر تشريف أوقاتِ حياتِه، ولمّا كانت حياة أي إنسانٍ لازمةً لذاتِه كان القسم بعمره ﷺ قسمًا بذاتِه وما لازمه فيها من صفاتٍ شريفةٍ منذ أوّل نَفَسٍ له ﷺ في هذه الدنيا إلى آخر نفسٍ له فيها، فلا عمرَ أفضلُ من عمرِ وحياةِ رسول اللّه ﷺ، فكانَ أهلًا أن يقسم به؛ لمزيته على كلِّ عمرٍ من أعمار بني آدم، ولا ريب أنَّ عمره وحياته من أعظم النِّعم والآياتِ على البشرِ جميعًا، والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات[3].

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير، ص: 9، و210، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/218، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/490.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/49.

(3) ابن العلاء أحكام القرآن: 2/61، وابن القيم، التبيان في أيمان القرآن، ص: 429.

وجه اختصاص ﴿لَعَمْرُكَ﴾ دون (عُمْرِكَ) بالقسم:

كثرة استعمال الألفاظ ودورانها في اللّسان، سبيل إلى تخفيفها

خصَّ الاستعمال العربيّ القسمَ بالمفتوحِ العين دون المضموم؛ لإيثار الأخفِّ في القسم، وذلك لأنَّ الحلف كثير الدّور على ألسنتهم، فلمّا كثر استعمالُهم إيّاه، لزموا الأخفَّ عليهم[1].

نكتةُ حذفِ المسند ﴿لَعَمْرُكَ﴾:

صحّة الحذف لدليل يدلُّ عليه، من فصيح البيان

حذف المسند وهو الخبر، لأنَّ خبر القسم محذوف دائمًا للإيجاز؛ لعلم المخاطب بأنَّه قسمٌ، ففي الكلام دليل على المحذوف؛ لأنَّ التقدير لعمرك قسمي، فالعَمرُ مقسمٌ به[2].

غرضُ التّوكيدِ ﴿إِنَّهُمْ﴾، في جملةِ جوابِ القسم:

المبالغ في التّكذيب لا يفيده تذكير ولا تحذير

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وفيه أنّه لمّا كان القسم بعمر رسول اللّه ﷺ عظيمًا بل هو أعظمُ قسم أقسم اللّه به بمخلوقٍ دلَّ على تعظيم جواب القسم، ولهذا أكّده بـ(إنَّ) واللّام وتقديم متعلّق الفعل ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ على الفعل ﴿يَعْمَهُونَ﴾، وأُكِّدَ الكلامُ بثلاثة تأكيداتٍ ليكون على طريق الخبر الإنكاريِّ؛ للإيذانِ بأنَّ المخاطبين قد أشربوا الإنكار في أنّهم في سكرتِهم يعمهون، وأنَّهم كانوا مبالغين في التّكذيب، فلا يفيدهم تذكير ولا تحذير.

دلالة الضّمير في قولِه ﴿إِنَّهُمْ﴾ في الآية:

المكذّبون بالرّسل شرورهم رائدة، وكفرهم في أصله ملّة واحدة

يحتمل أن يكون الضّمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ ومثله في ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ و﴿يَعْمَهُونَ﴾ عائدًا إلى المكذِّبين من قريشٍ بدلالة الخطابِ كما تقدّم في توجيه الجملة الاعتراضية، فيكون قد أقسم بعمر رسول اللّه أنَّ المكذِّبين من قريش لفي سكرتِهم يعمهون، ويحتمل أن يكون

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/183، والزمخشريّ، الكشاف: 2/586، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/369.

(2) النحاس، إعراب القرآن: 2/244.

عائدًا إلى قوم لوطٍ، بمعنى أنَّ اللّه تعالى أقسم بعمر رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ على أنَّ قومَ لوطٍ لفي سكرتِهم يعمهون[1].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في السّياق:

الإخبار أنّهم مغمورون في سكرتهم، وبيان حالهم من العمه

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ لأنه الخبر؛ فهو الحُكم عليهم بأنّهم لفي غفلتهم وغوايتهم يترددون ويتحيّرون، وجملة ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ حال، وإنَّ وما دخلت عليه جواب القسم.

نكتة التّعبير بلفظ السّكر في السّياق:

السّكر يذهب بالعقل، وإذا جاءت السّكرة، ذهبت الفكرة

عبَّرَ بلفظ السّكر الّذي هو ذهاب العقلِ، ومنه السّكر بالخمرِ، لأنَّ السّكر حالةٌ تعرض بين المرء وعقله، فكأنَّه يسدُّ عقله، ويمنعه منَ التّمييز[2].

بلاغةُ الاستعارة المكنيّة، في سياق الآية الرّضيّة:

المكذّبون بالرّسل، لا يميّزون الحقَّ، ولا يهتدون إليه سبيلا

لمّا قال ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أفاد أنَّ السّكرة كالظرفِ لتحيّرهم، فشُبِّه السّكر بالظَّرفِ على طريق الاستعارة المكنيَّة، بمعنى إحاطةِ السّكر بتحيّرهم وتردّدهم، فهم متغلغلون فيه لا يستطيعون فكاكًا عنه، ولا خروجًا منه، فلا يميّزون الحقَّ ولا يهتدون لطريقه.

بلاغةُ الاستعارة التّصريحيّة في لفظ: ﴿سَكۡرَتِهِمۡ﴾:

المكذّب بالرّسالة المحمّديّة، لا يميّز خطأ من صواب

شُبِّه ضلالُهم وغوايتُهم؛ لِغَلَبَةِ دَواعي الهَوَى عَلَى دَواعي الرَّشادِ، بِذَهابِ العَقْلِ ومنعِه[3] من التّمييز بين الهدى والضّلالِ على طريق الاستعارة التّصريحيّة، فالسَّكرة مستعارةٌ للضَّلالِ أو الغواية، والعلاقة هي إزالة العقول عن تمييز الخطأ من الصَّوابِ وليس في

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/635، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/210، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/490.
(2) ابن القيم، التّبيان في أيمان القرآن، ص: 430، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/68.

وقت السّكرِ فقط بل المراد الدّوامَ، والغرضُ من الاستعارةِ المبالغة في إثباتِ ضلالِهم وغوايتِهم بإثباتِ المدَّعى عليهم، ولِتصوير حالتِهم وهم في ضلالهم وغوايتِهم.

سرّ الإضافة في قولِه ﴿سَكۡرَتِهِمۡ﴾:

السّكرة عن الحقّ مخصوصة بالمكذّبين الضّالين

لمّا أضاف السّكرة إلى ضمير الجمع (هم)، وكانت الإضافة على معنى اللّام التي لِلاختصاص أفاد أنَّهم هم الذين أوقعوا أنفسهم في هذه السّكرة، فهي منسوبةٌ إليهم جميعًا، كما أفادت الإضافة أنّ هذه السّكرةَ مخصوصةٌ بهم، بسبب أفعالِهم القبيحة.

نكتة إفراد ﴿سَكۡرَتِهِمۡ﴾ دون جمعها في السّياق:

سبب الضّلال واحدٌ، وهو سدّ العقولِ عن الهداية والرَّشاد

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، لمّا أفرد السّكرة ولم يقل: (لفي سكراتِهم يعمهون) ليكون من مقابلة الجمع بالجمعِ في ﴿يَعۡمَهُونَ﴾، دلَّ على أنَّ سببَ ضلالِهم ومعصيتهم وفحشهم واحد، وأنَّهم اشتركوا في الأمر نفسِه، وهو سدُّ عقلِهم عن الهدايةِ والرّشاد، وفي إفرادِ السّكرة إشعارٌ بأنَّ أيَّ عقلٍ سليمٍ، لا يقبل فحشَ فعلِهم.

بلاغة المجاز، في لفظ ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

عمه البصيرة وانطماسُها، بمثابة عمى العينين، وانطماس النّظر

لمّا كان العمه في البصيرة بمثابة العمى للعينين؛ ليفيدَ العمهُ معنى انطماس البصيرة، أفاد بلازمِه على سبيل المجاز تحيُّرَهم وتردّدهم في الضّلال بحيث لا يدرون أين يتوجَّهون ولا يعرفون حسنًا من قبحٍ ولا حقًّا من باطلٍ، لعمهِ بصيرتِهم، ولمّا كان عمه البصيرة وصفًا ثابتًا أفادَ التّعبير به استمرارَهم في غوايتِهم وتماديهم، فلا ينفعُهم نصحٌ ولا تذكيرٌ ليتركوا قبيحَ أفعالِهم، فليس لهم إلّا العذاب[1].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/48، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/189.

دلالة صيغة الفعل المضارع ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

التّعبير بصيغة المضارع، باستمرار ضلالِهم اللّامتناهي

أفاد التّعبير بصيغة المضارع استمرارَ عمهِهم بمعنى تجدّد حدوثِه، أي يمضون في ضلالِهم ويستمرّون عليه ولا يتوقّفونَ فيه ولا يرجعونَ منه، وليس في وقتِ السّكرِ فقطْ، كما أنَّ في مجيء الفعل بصيغة المضارع بناءً على المأثور في الخطاب في حكاية الحال الماضية لاستحضارِ حالة العمه في المشاهدة، والتّعجُّبِ لها[1].

بلاغة مجيء المسند جملةً فعليّةً:

من سدَّ عقلَه عن الهداية، انطمس عليه في الغواية

لمّا كان جملة ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ خبرًا لـ(إنَّ) أفادت الجملة الفعلية تقوّي الحكم بمعنى تحقيق عمههم في سكرتِهم، دونَ تخصيصِه بهم، وأنَّه لا يكونُ مِنْ مثلِهم ممَّن هم في الغوايةِ والضّلالِ إلّا أن يكونوا في سكرتِهم يعمهون[2].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/635، والطيبي، حاشية على الكشاف: 9/54، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/86.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 221.